الدرس السادس و الأربعون

تفسير سورة المرسلات: [٣٤: ٥٠]

{وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٤) هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٧) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (٣٨) فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (٣٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٠) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (٤١) وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٤٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٥) كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (٤٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٧) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (٤٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٩) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (٥٠)}

قوله تعالى: {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٤)} يتوعد ويتهدد أولئك الذين كذبوا بالمعاد ومايقع فيه من حوادث.

قوله: {هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦)} في هذا الحر الشديد والأتّون الرهيب القابض لا يتمكنون من النطق، فتعقل ألسنتهم فلا يتمكنون من الاعتذار ولا الافصاح عن مكنونات قلوبهم، لأن الدهشة قد أخذتهم وبلغت القلوب الحناجر، وإن كانوا في بعض مواضع يوم القيامة يأخذون في الاعتذار ويحلفون الأيمان ويكذبون الرسل ويكذبون الملائكة وغير ذلك ،ولكنهم

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

في هذا الموضع العصيب يُختم عليهم فلا يتكمنون لشدة الهول من بيان. فيالها من حال بئيسة وما أعجب تصوير القران لحال المكذبين يوم القيامة إن فيه من العظة والعبرة لمن شرح الله صدره ما يحمله على أن ينخلع مما هو فيه من تكذيب و فسق و كفر وعصيان ، فأما من ختم على قلبه فما تنفعه موعظة ولا ادكار وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون، كما قال تعالى: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ} [الأعراف: ١٤٦].

ولما ذكر الله حال هؤلاء ذكر حال مقابليهم من المؤمنين قال سبحانه وتعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (٤١)} فإن كان أولئك في ظل ذي ثلاث شعب لا ظليل و لا يغني عن اللهب فإن عباد الله المؤمنين في ظلال ظليلة وعيون سارحة وهم في عرصات القيامة في ظل عرش الرحمن وفي الجنة في ظلال أشجارها فالظلال من فوقهم والعيون تجري من تحتهم.

قال تعالى: {وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢)}، وهو ما يتفكهون به من أنواع المأكل.

وقد جاء في السنة وصف رقيق لنعيم أهل الجنة وكيف أن الرجل من أهل الجنة إذا اشتهى الثمرة تدلت له حتى صارت في متناول يده فإذا قضى منها نهمته ارتفعت في

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

شيء كما ربنا عز وجل في الحديث القدسي: (أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ)[1].

فيمتعهم الله تعالى متاعاً حسياً ومتاعاً نفسياً فهم في راحة ودعة و أنس وراحة بال وهم أيضا يتقلبون في أنواع المتاع من الأكل والشرب والنكاح و سائر المتع الحسية وما ذاك إلا بسبب ما قدموه في الدنيا {كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)}.

فقوله: (بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)، هذه الباء ليست باء المعاوضة ولا باء الثمنية ولا باء المقابلة بل هي باء السببية فبهذا نجمع بينها وبين حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: (لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الجَنَّةَ» قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: " لاَ، وَلاَ أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ)[2] فالباء التي في الحديث هي باء الثمنية والعوض والمقابلة فهي باء منفية ، وأما الباء التي في مثل هذه الآية بما كنتم تعملون جزاء بما كنتم تعملون ، فأعمالهم كانت سبباً في دخولهم الجنة ولا عوضا ولا مقابل كما تدعي المعتزلة.

أي بسبب ما قدمتم من أعمال صالحة في الدنيا نلتم بها هذا الجزاء فإن الله سبحان الله

(١) أخرجه البخاري رقم (٣٢٤٤)، ومسلم رقم (٢٨٢٤).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٥٦٧٣)، ومسلم رقم (٢٨١٦).

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

وتعالى لا يخلف الميعاد وقد وعدكم فصدق وعده كما سألوه بقولهم: {رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ} [آل عمران: ١٩٤].

قال تعالى: {إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}: قانون العدل الإلهي الذي قامت به السماوان والأرض فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان. فالله تعالى متفضل منعم شكور، كما أنه حكم عدل مقسط.

قال الله تعالى: {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٥)} هذه الجملة تتعلق بما تقدم ذكره فمن كذب بنعيم أهل الجنة فويل له ثم قال الله سبحانه وتعالى: {كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (٤٦)} التفت السياق إلى الفريق الآخر وهم المجرمون.

فلما كان الحديث عن الأكل، والشرب، والتمتع أراد الله سبحانه وتعالى أن يبكِّتهم ويندمهم، فقال: (كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ) فهم في النَّار إنما يأكلون الضريع والزقوم، ويشربون الحميم، والغسلين، وقد كانوا في الدُّنيا يأكلون ويتمتعون ؛ لكنه متاع زائل، (كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ) أي: هذا في الدنيا ، فأنتم في الدُّنيا تأكلون ، وتتمتعون كما تأكل الأنعام ، متاع قليل ، متاع زائل ، فأنتم في هذه الدُّنيا تنالون ما قُسم لكم بمقتضى الربوبية ، فإن الله سبحانه وتعالى قد تكفل لكل دابة بما يقيم أودها، قال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا}[سورة هود:٦] فهم وإن رزقهم لكنها لا تحل لهم بل تكون شؤمًا عليهم؛ لهذا قال ربنا عز وجل:

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

{قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ (٣٢)}[سورة الأعراف:٣٢] يعني في الحياة الدنيا يشرَكهم غيرهم من الكفار، في المآكل، والمشارب، وربما يفوقونهم في التمتع بها؛ لكنها يوم القيامة تكون خالصة للمؤمنين ، وأما الكافرين فإنما يأكلون من الضريع والزقوم، ويشربون من الحميم والغسلين.

أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأنه: (يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللهِ يَا رَبِّ وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا، مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ)[٣]،نسي كل شيء مر به نسأل الله من واسع فضله.

قال تعالى: (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٧))، بوعيد المجرمين.

قال تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ(٤٨))،كانوا حينما يندبون إلى الخضوع لله سبحانه وتعالى والصلاة يأبون، ويستنكفون، ولا يظهرون العبودية المستحقة لله تعالى ، وبعضهم يقع في نفسه كبر جاهلي كما (أَنَّ وَفْدَ ثَقِيفٍ لَمَّا قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ

(٢) أخرجه مسلم رقم (٢٨٠٧).

صلى الله عليه وسلم أَنْزَلَهُمُ الْمَسْجِدَ لِيَكُونَ أَرَقَّ لِقُلُوبِهِمْ فَاشْتَرَطُوا عَلَيْهِ أَنْ لاَ يُحْشَرُوا وَلاَ يُعْشَرُوا وَلاَ يُجَبُّوا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِّ صلى الله عليه وسلم: "لَكُمْ أَنْ لاَ تُحْشَرُوا وَلاَ تُعْشَرُوا وَلاَ خَيْرَ فِى دِينٍ لَيْسَ فِيهِ رُكُوعٌ")[٤].

أما أهل الإيمان فإنهم يشرفون بالركوع لله والسجود له .

ومن طريف ما يُحكى في هذا المقام أن الإمام مالك -رحمه الله- كان لا يرى صلاة ذوات الأسباب في وقت النَّهي ، فلا يرى أن تُصلَّى تحية المسجد في وقت النَّهي ، فقُدِّر أنه دخل المسجد يومًا بعد صلاة العصر ، فجلس ، فأتى إليه صبي وقال له – وهو لا يعرفه-: يا شيخ قم فاركع ركعتين ، فقام -رحمه الله- وركع ركعتين ، فقيل له: يا أبا عبدالله ، كيف وأنت لا ترى تحية المسجد في وقت النَهي ، قال : إني خشيت أن أكون ممن قال الله فيهم : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ).

قال ابن القيم -رحمه الله- قوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} ذكر هذا بعد قوله: {كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ}، ثم توعدهم على ترك الركوع وهو الصلاة إذا دعوا إليها ولا يقال إنما توعدهم على التكذيب فإنه سبحانه وتعالى إنما أخبر عن تركهم لها وعليه وقع الوعيد[٥].

(٤)أخرجه أحمد رقم (١٧٩١٣)، وأبو داود رقم (٣٠٢٨).

(٥) الصلاة وأحكام تاركها (٤٩).

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

قال الله عز وجل: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ(٥٠)﴾، إذا لم يقنعهم القرآن ، إذا لم يخضعوا لآياته ، ودلائله ، وحججه ، وبراهينه ، فبأي حديث يمكن أن يقتنعوا ؟.

وفي هذا إلماحة إلى الدعاة أنه، ينبغي أن يكون دليلهم الأول، وسلاحهم الذي عليه المعوّل القرآن العظيم، كما قال الله عز وجل: ﴿ وَجَاهِدْهُم بِهِ﴾[سورة الفرقان:٥٢]، وقال: {وَذَكِّرْ بِهِ} [الأنعام: ٧٠]، وقال: {وَأَنْذِرْ بِهِ} [الأنعام: ٥١]، فيجب أن يستشعر الداعي إلى الله عز وجل أن أعظم سلاح له هو القرآن العظيم، وأنّه ينبغي أن يحتج به، ويستدل به، وينهل من معينه، ويستخرج الدلائل التي أودعها الله فيه، فلا يغرنّك ما تسمع من كلام بعض المتكلمين أو العصرانيين المتفلسفين الذين يقولون دعوا النصوص جانبًا، هذه أدلة سمعية ، وعليكم بالأدلة العقلية ، فما كان من حق فيما يذكرون فهو موجود في القرآن العظيم ، فالقرآن يتضمن العقل والنقل معًا ، فليس هناك دليل أقوى من أدلة القرآن، ولا موعظة أعظم من موعظة القرآن، فتمسك بهذا أيها المؤمن، وأيها الداعية ، ويا طالب العلم ، ولا تعدل به شيئًا، ولا تبحث عمّا سواه، ولا تحاول أن تتسلح بغير سلاح القرآن فهي أسلحة واهية ، ضعيفة بجنب سلاح القرآن ، وقوته ، وإقناعه ؛ ولهذا قال ربنا عز وجل: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ(٦)﴾[سورة التوبة:٦]، فأول ما نقرع به سمعه كلام ربنا عز وجل .

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

الفوائد المُستنبطة:

الفائدة الأولى: إقسام الله تعالى بما شاء من مخلوقاته، شرف المُقسَم به؛ فإن الله تعالى لا يقسم إلا بأمر شريف.

الفائدة الثانية: تسخير الله تعالى لمخلوقاته من الرياح، والملائكة.

الفائدة الثالثة: أن آيات القرآن فرقان بين الحق والباطل، والمؤمن والكافر ، والحلال والحرام.

الفائدة الرابعة: أن القرآن ذكر للقلوب، وإعذار وإنذار للنَّاس.

الفائدة الخامسة: إثبات المعاد، والقطع بذلك.

الفائدة السادسة: بيان المتغيرات الكونية في السماوات والأرض يوم القيامة.

الفائدة السابعة: شهادة الرسل على أقوامهم.

الفائدة الثامنة: أن من أسماء القيامة (يوم الفصل) وهو اسم ووصف.

الفائدة التاسعة: وعيد المكذبين بالبعث.

الفائدة العاشرة: سنة الله المطّردة في إهلاك المكذبين.

الفائدة الحادية عشر: الاستدلال بالخلق الأول على إعادته.

الفائدة الثانية عشر: بديع خلق الله ، وكمال قدرته في خلق الإنسان وتطوره.

الفائدة الثالثة عشر: إثبات القدر السابق.

الفائدة الرابعة عشر: الاستدلال بالأدلة الأرضية على إثبات البعث.

الفائدة الخامسة عشر: الاستدلال بالخلق الأعظم على ما دونه.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

الفائدة السادسة عشر: أسلوب الالتفات وأسلوب التكرار في القرآن، فالقرآن بديع تتنوع أساليبه لا يمله قارئه ولا يبلى على كثرة الرد.

الفائدة السابعة عشر: شدة عذاب جهنم وسوق المكذبين إليها كرها.

الفائدة الثامنة عشرة: إلجام أفواه المكذبين وعقل السنتهم عن الكلام و الاعتذار لشدة الهول انقطاع حيلة المكذبين يوم القيامة وإبلاسهم.

الفائدة التاسعة عشر: كمال نعيم المؤمنين الحسي والمعنوي في الجنة.

الفائدة العشرون: أن العمل سبب لدخول الجنة لا ثمن لها.

الفائدة الحادية والعشرون: أن الجزاء من جنس العمل.

الفائدة الثانية والعشرون: أن متاع الدنيا قليل.

الفائدة الثالثة والعشرون: أن ترك الصلاة مخرج عن الملة ومن موجبات الخلود في النار وعلى هذا السلف المتقدمون حتى حكي الإجماع على ذلك. ولقوله: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (٤٨)}، دليل يعزز هذا القول مع أدلة أخرى أصرح من ذلك

والفائدة الرابعة والعشرون: أن القرآن العظيم بلغ الغاية في الإعجاز والإقناع.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله